التجاذب بين النحو المنطق

دراسة في ضوء (الليلة الثامنة) من كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي

م.د. مجاهد عبدالمنعم أحمد سامي

مديرية تربية نينوى

(قدم للنشر في 2017/11/16 ، قبل للنشر في 2108/1/16)

الملخـــص:

هذه المناظرة من المناظرات التي يجب الوقوف عندها عندما نتعرض للدرس النحوي في مراحله المختلفة بدءاً بالنحو الذي بدا طرياً على يد الخليل ويونس بن حبيب وابي عمرو بن العلاء وسيبويه وغيرهم. ثم حدث تهافت العلوم بعد نمو الحضارة العربية الإسلامية وكثرة التراجم من كتب ومؤلفات الأمم الأخرى، وكان لعلوم الإغريق القدح المعلى من هذه التراجم. ومن أبرزها علم المنطق اليوناني الذي صار الدرس الأساس لعلم المنطق في كل أمم الأرض. لقد بني المنهج النحوي العربي على قواعد منطقة عقلية. ونرى ذلك جلياً في تقسيماته وتعليلاته وتأويلاته إلا أن الأمر تعدى ذلك إلى هيمنة وطغيان هذا العلم على علم النحو العربي الأصيل، فجرده من أساليبه الجميلة وتعابيره الرفيعة وأثقله بالقوانين المعيارية، ومن هنا كانت ثورة ابن مضاء ومن تبعه من النحويين على نظرية العامل والعلامة الإعرابية. أن روعة هذه المناظرة تكمن في أن أبا سعيد السيرافي (368ه) كان يحاجج خصمه بالمنطق الذي يدعيه وبالحجج والبراهين التي يتبناها.

Abstract

This debate of the debates that must then stand when we are exposed to the studied grammar in its various stages , starting Balnho , which seemed to tender at the hands of Hebron and Younis Habib bin Abi Omar bin Alaa and Sibawayh and others. Panting science and then happened after the growth Elhouda t of Islamic and Arabic translations of the large number of books and works Nations The other, was the holy grail science Greeks of these translations. Notably aware of the Greek logic , which has become the foundation lesson ADDRESSES logic in all nations Earth. The Arab grammatical curriculum was built on the rules of a mental region. We see this clearly in its subdivisions and Talelath and interpretations but It beyond that to the domination and tyranny of this science are aware of the authentic Arabic grammar, Fjrdh beautiful methods and high - Othaglh laws and Meanings standard, and here was a revolution and son floodlit followed by grammarians on the theory factor mark syntactic. That this debate is that wonderful Abu Saeed seraphic (368 AH) was arguing that his opponent with logic and claim Balh proofs and Gigi adopted.

المقدمـــة

نقف عند هذه الليلة من ليال المحاورات الجميلة التي دونها ابوحيان التوحيدي (400ه) في كتابه (الامتاع والمؤانسة) , الليلة الثامنة. إذ ضمن ابوحيان كتابه هذا ثمان وثلاثين ليلة بعدد المحاورات (الامسيات) التي تناظر بها مع أقرانه من العلماء . الليلة الثامنة كانت بينه وبين بشر بن متى بن يونس القنائي الملقب بـ(المنطقي) في حضرة الوزير ابن الفرات, وقد وردت هذه المناظرة في كتاب (المقابسات) للتوحيدي ايضا ,وقصة المناظرة أن الوزير ابن الفرات كان قد سأل مجالسيه ذات يوم إن كان بينهم من يستطيع أن يتصدى لمناظرة أبي بشر في المنطق , فانه يقول :إنه لاسبيل الى معرفة الحق من الباطل , والصدق من الكذب, والخير من الشر, والحجة من الشبهة , والشك من اليقين, الا بالمنطق. فاستجاب ابو سعيد لدعوة الوزير ابن الفرات . وعلى وفق ما تقدم يمكن تقسيم البحث الى ما يأتي:

التمهيد: ويشمل:أ- مابين النحو والمنطق من مناسبة.

ب- التأثير والتأثر.

المحور الاول :جدل اللفظ والمعنى (الجاحظ، الجرجاني، ابن جني).

المحور الثاني : اللغة العربية وعلم المنطق اليوناني

المحور الثالث: المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى المنطقي.

المحور الرابع : أثر المنطق في علم العقائد .

وينتهي البحث بالخاتمة المتضمنة أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

التمهيد:

أ- ما بين النحو والمنطق من مناسبة:

تحت هذا العنوان تحدث ابو حيان التوحيدي عن العلاقة بين علمي المنطق والنحو, فيقول:" النحو منطق عربي , والمنطق نحو عقلي , وجل نظر المنطقي في المعاني وإن كان لا يجوز له الاخلال بالالفاظ التي هي لها كالحلل والمعارض , وجل نظر النحوي في الالفاظ وإن كان لا يسوغ له الاخلال بالمعاني التي هي كالحقائق والجواهر "[1] .

فالنحو التقليدي :"كل الدراسات النحوية القديمة التي ظهرت عند الهنود والاغريق والرومان والعرب واستمرت حتى عصر النهضة ومطلع العصر الحديث ويقتصر هذا النحو على دراسة النصوص المكتوبة دراسة معيارية ويرتكز في جوهره على مباديْ عقلية ومقولات منطقية أرسطية"[2], والنحو العربي – وهو ما نحن بصدده- انتحاء سمت العرب في كلامهم , فيعرف به صحيح الكلام من سقيمه ,وعرفه أحد المعاصرين

بأنه:"علم الاعراب ومعرفة الاحكام التي للكلم من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها"[3] , أما المنطق فهو آله تعصم الفكر من الخطأ عن طريق ترتيب الافكار , ومرجعه العالم اليوناني أرسطو , إذ يعد من ابرز علماء اليونان ممن وطدوا دعائم المنهج العقلي "إذ ربط بينه وبين اللغة لتوضيحه ووضعه في قوالب نحوية صاغها في صور ألفاظ وأصوات , والمنطقيون بعده حاولوا صب اللغات في تلك القوالب المنطقية لأرسطو[4] .

وعلى وفق ما تقدم , فانه لا يستغني أي منهج علمي عن المنطق في تعليلاته وتقسيماته وحدوده , هكذا فعل العلماء العرب عندما بدأت حركة الترجمة لكتب الاغريق وبخاصة كتب ارسطو في المنطق , فتذكر لنا المصادر أن ابن المقفع أول من ترجم كتب المنطق لارسطو وهي :كتاب قاطيمو رياس, وكتاب باري أرمينياس , وكتاب أنالوطيقا, وترجم أيضا كتاب إيساغوجي في المنطق بعد وفاة المنصور[5] .

ويمكن أن يعد أشهر الشارحين لهذه الكتب الفيلسوف الكندي (260ه) , وابو نصر الفارابي (340ه), وابن رشد الاندلسي (595ه)[6] .

"ينقسم المنطق الارسطي الى : تصور وتصديق , ويختص الحد بمبحث من التصورات والالفاظ والمفاهيم المفردة , أما التصديق فيختص بالقضايا والاحكام والاستدلال , ويتمثل الاستدلال الارسطي في ثلاثة مسالك رئيسية هي : القياس والاستقراء والتمثيل[7]"

ويؤكد المناطقة على الحدود , فما الحد؟ الحد : الاحاطة بجوهر المحدود على الحقيقة حتى لايخرج منه ما هو فيه ولا يدخل فيه ما ليس منه[8] , وتعتمد عليه التقسيمات المنطقيات كالجنس والنوع والفصل والخاصة والكلي والجزئي . .الخ, فالنحويون مثلا قالوا عن النكرة : ماشاع في جنسه ولا يختص به واحد دون الآخر, فاستعاروا مفهوم (الجنس) لتقديم حد لهذا المصطلح النحوي , والاخص يسمى نوعا والاعم يسمى جنسا عند المناطقة . وبإمكاننا أن نقف عند قول الفارابي إذ يقول :" وكما ان صناعة النحو تقوم اللسان حتى لا يلفظ الا بصواب ما جرت به عادة اهل لسان ما كذلك صناعة المنطق تقوم الذهن حتى لا يعقل الا الصواب من كل شيْ , وبالجملة فان صناعة النحو الى الالفاظ هي كنسبة صناعة المنطق الى المعقولات"[9] .

ب- التأثير والتأثر:

نشا النحو العربي أصيلا خالصا مستمدا قوته من المجتمع

الاسلامي المحصن بثقافة القرآن الكريم وعلومه. والمطلع على أقدم كتاب في النحو (كتاب سيبويه) (180ه) مثلا لايجد فيه إشارة الى مصطلحات المناطقة كالجنس والنوع والجزئي والكلي أو القضايا والمثال والعكس وغيرها من المصطلحات و وإنما صار التأثر بالمنطق الارسطي في القرن الرابع الهجري إذ ظهرت الحاجة الى تبني المنطق الارسطي في بناء القواعد النحوية تحت خيمة المنطق وتعليلاته وتقسيماته . وفي ذلك يقول ابن قتيبة: "ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم , ولو سمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب"[10].

وقد وقف الدارسون على رأيين مهمين في قضية تأثر النحو العربي بالمنطق الارسطي : الرأي الاول رأي المخالفين إذ يقولون :"قبل ان يدون أرسطو علم المنطق كان هناك في العالم الكثير من العلماء وقد ظهرت آراء صحيحة , كما أنه بعد أرسطو استطاع كثير من العلماء أن يصل الى فهم الحقائق ودركها دون اطلاع على منطق أرسطو ؛ لذا فليس هنا حاجة الى تعلم المنطق ولا فائدة ترجى منه سوى تطويل الطرق وإضاعة الوقت وهدر العمر"[11],

والرأي الثاني هو رأي الموافقين فيقولون :"إن نسبة علم المنطق الى الفكر البشري كنسبة علم النحو الى كلام الانسان كما أن الضرورة دعت الى أن يستخرج بعض الاذكياء قواعد التفكير الصحيح من خلال الافكار المحكمة والبراهين الصحيحة ويقسمونها ,يقول ابن سينا: (ونسبتها الى الروية نسبة النحو الى الكلام والعروض الى الشعر لكن الفطرة السليمة والذوق السليم ربما أغنيا عن تعلم النحو والعروض وليس شيْ من الفطرة الانسانية بمستغن في الاستعمال الروية عن التقدم الروية باعداد هذه الآلة الا أن يكون إنسانا مؤيدا من الله تعالى"3

ورأي ابن سينا المذكور آنفا كلام فيه نظر , إذ كيف توصل أرسطو وأصحابه الى هذه القوانين التي تعصم الفكر من الخطأ من غير تفكير استدلالي يسبقها ! فالتفكير الاستدلالي موجود أصلا قبل تدوين المنطق وتقسيمه , وقد تمكن عقل الانسان أن يفكر بشكل سليم ومنظم من غير قوانين المنطق فهو صانع تلك القوانين , ولايلزم ان يكون الانسان الذي يتوصل بعقله الى القوانين و الافكار الصحيحة من غير استعانة بالمنطق , ان يكون ملهما او مؤيدا من الله تعالى مثلما قال ابن سينا .

وعودا الى النحو العربي ونشأته في عصر الخليل وسيبويه , فلم يكن سيبويه الذي أخذ علمه عن الخليل (174ه) مقلدا لأي طريقة منطقية ارسطية في تأليفه (الكتاب) نلحظ ذلك في

بساطة المصطلحات في الكتاب وكذلك في تقسيماته .بيد أن منهجية علمية عالية وقياسات متقدمة وحجج يافعة ناجعة تقدمها صفحات الكتاب في كل مباحثه , كل ذلك لم يكن استعانة بعلم المنطق , فلم يعرف في عصر سيبويه كتاب مشتهر في علم المنطق مترجم , وكذلك فكر الخليل كان فكرا شموليا استقصائيا استقرائيا في معجمه , فطريقة (التقليب) ليس لها سابقة عند اليونان أو الهنود أو غيرها من الامم السالفة , وهي طريقة عربية خالصة تضمن الاحاطة بكل وجوه اللفظ الثلاثي وإعطاء الدلالات الوافية له , ثم ذكر المهمل والمستعمل منه.

المحور الاول :جدل اللفظ والمعنى: شغلت قضية اللفظ والمعنى الفكر النحوي والبلاغي في عصره الذهبي، إذ ادخل الأعاجم على الفكر العربي كل ما هو دخيل عليه، فكان اعتمادهم على المعاني العقلية التي يتضمنها علم المنطق، وعلم الكلام، وعلم الفلسفة، وقد يكون ذلك الأمر طبيعياً في تاريخ الحضارات الإنسانية إذ لابد من التلاقح الفكري فيما بينها، وبخاصة عند تبني الدولة العباسية سياسة الانفتاح الثقافي على الأمصار، فحصل التهافت من قبل الحضارات القادمة إلى ارض الخلافة. مركز العمل ومحط أنظار طلابه فكان الحضور الفكري لهاتيك الحضارات بكل ما يحمل من رواسب لديانات وعقائد موغلة في القدم.

بيد أن الأمر يأخذ جانباً اخر عند العجم, فله من الوجهة السياسية حظ كبير، فقد هيمنوا على مقاليد الحكم من خلال سيطرتهم على شخصية الخليفة العباسي، يظهر جلياً ذلك في القرن الرابع الهجري. وامتد هذا الأمر بظلاله على قضية اللفظ والمعنى. فانحاز فريق من العلماء إلى جانب اللفظ منطلقين من انتصارهم للغة القرآن الكريم، وذهب فريق آخر إلى تغليب المعنى وأهملوا اللفظ بسبب تأثرهم بالبيئة الأعجمية التي نشأوا فيها وافتقارهم إلى الفصاحة العربية الأصيلة، وساوى فريق ثالث بين اللفظ والمعنى متجاوزاً كل ما تقدم من عوامل. نستهل تلك الآراء بمقولة أبي سعيد السيرافي (صاحب المناظرة) إذ يقول "معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك وان زاغ شيء عن هذا النعت فانه لايخلو من ان يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد أو مردودا عن عادة القوم الجارية على فطرتهم , وإنما دخل العجب على المنطقيين لظنهم ان المعاني لاتعرف ولا تستوضح الا بطريقتهم ونظرهم فترجموا لغة هم فيها ضعفاء ناقصون وجعلوا تلك الترجمة صناعة وادعوا على

النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى "[12] .

أ- اللفظ والمعنى عند الجاحظ: ولكي نستوفي مقالات الفرق الثلاث نقف عند الجاحظ (255ه) ومقالته الشهيرة "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والحضري، إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من المنهج وجنس من التصوير"[13] . وهذه المقولة يعدها النقاد من أشهر مقولات الجاحظ التي صنف بموجبها منحازاً إلى اللفظ دون المعنى، وله أقوال أخر تعضد هذا الاتجاه، منها: "ثم اعلم حفظك الله أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ؛ لان المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة معدودة، وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها: اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال وتسمى نصبة"[14] فقدم اللفظ على جميع أصناف الدلالات التي يوصل بها إلى المعنى .

ونقل عن يونس بن حبيب(182ه) قوله: "ليس لعيٍّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حك بيافوخه عنان السماء"[15] وبإمكاننا القول إن قوله: "الشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه"[16] فيه دليل على انتصاره للفظ وذمه لكل ما تقدم من مقولات. بيد أن القطع بهذا التصنيف لا يستقيم إذا ما تعرفنا إلى مواضع أخر، مثل قوله: "لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[17] ويقول أيضا: "ومن أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فان حق المعنى الشريف: اللفظ الشريف"[18] .

ويوجه مقادير المعاني في موضع اخر فيقول: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل من حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات واقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[19] .

وبناء على ما تقدم من أقوال نستطيع القول إن الجاحظ على الرغم من تأكيده على الألفاظ في معظم وقفاته على هذه القضية، لكنه كان يقصد إلى مطابقة اللفظ للمعنى ابتغاء إظهاره بحليته اللائقة به، التي لا تحتمل لبساً أو زيغاً، فنجده يقول: "الأسماء في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بَدَن، والمعنى للفظ روح"[20] .

وبإمكاننا أيضا أن نعزو تأكيده للفظ في مؤلفاته –بالأخص في مقولته: (المعاني مطروحة في الطريق)– نابع من موقفه السياسي والثقافي من الصراع الشعوبي الرائج في عصره وانتصاره إنما كان للغة العربية وثقافته العربية ونقف على قوله: "وكيف صارت العرب تقطع الالحان الموزونة على الأشعار الموزونة فتضع موزوناً على موزون، والحجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن موزوناً على غير موزون"[21].

ب. اللفظ والمعنى عند الجرجاني: عبدالقاهر الجرجاني (474ه) أعطى القدح المعلى للمعنى وقدمه على اللفظ منطلقاً من منهجه العقدي الأشعري المستند على فكرة الكلام النفسي[22] "فالعلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[23] ويدعم عبدالقاهر رأيه بالحجج المنطقية الدالة عليه فيقول: "لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها، لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق احساساً واحداً"[24].

وبناء على هذا "فان الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة، وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو مما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك لذلك انك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع اخر"[25] وطبقاً لهذا الكلام فالحسن في اللفظ يكون نسبياً بحسب المعنى الذي تخلفه في النفس وهو يختلف من أذن لأخرى، "ولو كانت المعاني تكون تبعاً للألفاظ في ترتيبها، لكان محالاً أن تتغير المعاني والألفاظ بحالها لم تزل عن ترتيبها، فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغيير من غير أن تتغير الألفاظ وتزول عن أماكنها علمنا أن الألفاظ هي التابعة والمعاني هي المتبوعة"[26].

ويمكن أن نصل من القول المذكور آنفاً إلى أن وجوهاً في علم البديع كالجناس والطباق والسجع لا تعد معياراً للفصاحة على الرغم من تعلقها بالمستوى الصوتي للألفاظ و"على الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سمعاً حسناً، حتى يكون المعنى الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه"[27] ,وهل يخرج المعاني المكنونة في الصدور إلا الألفاظ؟ فليس للمعنى قيمة إن لم يظهر للعيان باللفظ الذي يكون له كالقالب الملائم له، والا كان مختلاً في إعطاء الدلالة. وهب اننا أعطينا معنىً ما لأدباء عدة ليس لغتهم واحدة، وفيهم العربي، البليغ فهل سيقدر الباقون بلغاتهم على بيان ذلك المعنى وتثويره؟ اما العربي فهو

قادر على إظهاره بأكثر من صياغة بما تمتلكه لغته من مفردات ثرة ومترادفات مختلفة، وسيكتفي الباقون –على الأغلب– بصياغة واحدة.

إذن ما الذي كان يريده الجرجاني من كل أقواله فيما تقدم؟ أحسب انه يريد (المواشجة) بين المعنى واللفظ بحيث يستدعي المعنى الشريف اللفظ الشريف، ولأن المعنى أسبق في الفكر فهو موجود أصلاً في النفس فقد أكد عليه مراراً وشبه المعنى بالشيء الذي يطبع عليه الصياغة كالذهب الذي يصاغ منه الخاتم، فالذهب هو المعنى والخاتم هو اللفظ" فكما أن محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الكاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه"[28].

وقادته هذه الرؤية إلى ما عرف بـ(نظرية النظم) إذ بتكامل عناصر اللفظ والمعنى وتواشجها معاً تتحقق عملية النظم التي عرفها الجرجاني "توخي معاني النحو"[29] وهو لا يقلل هنا مطلقاً من شأن اللفظ، لكنه يؤكد على تآلف الألفاظ مع بعضها لتقدم المعنى وتصل إلى (الإفادة) "فليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل ولا هي منا بسبيل، وإنما تعمد إلى الإحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب"[30].

وبذلك يكون البحث قد أوجز القول في قضية اللفظ والمعنى من خلال عرضه لأبرز وجهين فيها، الأول الجاحظ الذي انتصر للفظ والثاني الجرجاني الذي انتصر للمعنى وقد ظهر لنا الانتماء العقدي موجهاً مقبولاً لميل الجرجاني إلى المعنى وتأكيده عليه، أما الجاحظ فان المفارقة الواضحة أن ميله للفظ كان غير متوافق مع عقيدته الاعتزالية التي تقدم العقل وتعده المعيار الأساس في توجيه الأحكام؛ لهذا كان من الضروري أن نقدم وجهاً آخر لا يمكن الاستغناء عنه عند الولوج في هذه القضية، ولاقتراب منحاه من موضوع البحث: (المنطق والنحو) إلا وهو أبو الفتح عثمان بن جني (393ه).

ج. اللفظ والمعنى عند ابن جني (392ه): هذه العقلية الفذة هي ثمرة للطابع العقلي الذي ساد في البصرة في تلك الفترة، والذي كانت أول علاماته نشوء مدرسة البصرة في النحو وما بنيت عليه من أدلة عقلية وأقيسة منطقية، يمكن القول أيضا إن ابن جني عاصر تلك الجماعة الفلسفية خطيرة الشأن والتي عرفت بأسم (إخوان الصفا وخلان الوفا (360ه) أي انه كان في شرخ شبابه فمن المرجح تأثره بها . وعلى الرغم من إن ابن جني لم يدرك العصر الذهبي لهيمنة الفكر الاعتزالي، إلا انه

يقدم التزاماً جلياً بمذهبه الاعتزالي في كتابه الشهير (الخصائص) فيقول في بداية مقدمته: "الحمد لله الواحد العدل القديم"[31] ونرى ذلك أيضا في احد أبواب كتاب الخصائص: "هذا باب ما يؤمنه علم العربية من المعتقدات الدينية" [32] ونجده يحكم العقل إذا ما تعارض اللفظ مع المعنى مرجحاً المعنى، وذلك في معرض كلامه عن الممنوع من الصرف إذ يقول: "باب في مقايس العربية، وهي ضربان: احدهما معنوي والاخر لفظي، وهذا الضربان وإن عما وفشوا في هذه اللغة، فإن أقواهما وأوسعهما هو القياس المعنوي، إلا ترى أن الأسباب المانعة من الصرف تسعة، واحد منها لفظي وهو شبه الفعل لفظاً نحو احمد . . . والثمانية الباقية كلها معنوية للتعريف، والوصف، والعدل، والتأنيث وغير ذلك" [33] .

وهو إذ لا ينكر اعتناء العرب بالألفاظ والمحسنات البديعية، نراه في الوقت نفسه يوجه هذا الاعتناء إلى خدمة المعنى فيقول: "ويدلك على تمكن المعنى في أنفسهم وتقدمة اللفظ عندهم، تقديمهم لحرف المعنى في أول الكلمة، وذلك لقوة العناية به ليكون ذلك إمارة لتمكنه عندهم وعلى ذلك تقدمت حروف المضارعة في أول الفعل، إذ كن دلائل على الفاعلين، من هم؟ وما هم؟ وكم عدتهم؟ نحو: أفعل، ونفعل، وتفعل، ويفعل" [34] .

"وقالوا قط الشيء إذا قطعه عرضاً و (قده) إذا قطعه طولاً؛ وذلك لأن منقطع الطاء اقصر مدة من منقطع الدال وكذلك قالوا: (مدّ الحبل) و(متَ إليه بقرابة) –لأنها مجهورة– لما فيه من علاج، وجعلوا التاء –لأنها مهموسة– لما لا علاج فيه، وقالوا: الخذأ (بالهمزة) في ضعف النفس –والخذا –غير مهموز– في استرخاء الاذن [يقال] أذن خذواء، وآذان خذو، ومعلوم أن الواو لا تبلغ قوة الهمزة فجعلوا الواو لضعفها –للعيب في الاذن، والهمزة بقوتها– للعيب في النفس من حيث كان عيب النفس أفحش من عين الاذن" [35] .

وانطلاقاً من تنبيهه لمبدأ (المواضعة) في اللغة، يعطي التعليلات المقنعة لاستعمال العرب للحروف بحسب دلالتها الأقوى على الأشياء فيعلل في الفعلين (صعد وسعد) استعمال العرب للصاد "فجعلوا الصاد لأنها الأقوى لما فيه اثر شاهد يرى، وهو الصعود في الجبل والحائط ونحو ذلك، وجعلوا (السين) لضعفها لما لا يظهر ولا يشاهد حسّاً، إلا انه مع ذلك فيه صعود الجد لا صعود الجسم" [36] .

ويقدم ابن جني قدرة فائقة على المحاججة العلمية والمنطقية عندما يتعرض لقضية الأسبقية بين الأسماء والأفعال والحروف في الرتبة فيقول "فان قلت: هلا ذهبت إلى أن الأسماء اسبق رتبة من الأفعال، كما انها اسبق رتبة منها في الاعتقاد،

واستدللت على ذلك بأن الحكمة قادت إليه، إذ كان الواجب أن يبدأ بالأسماء، لأنها عبارات عن الأشياء، ثم يأتوا بعدها بالأفعال التي تدخل بها الأسماء في المعاني والأصول، ثم جاءوا فيما بعد بالحروف لأنك تراها لواحق بالجمل بعد تركبها واستقلالها بأنفسها؛ نحو إن زيداً أخوك، وليت عمراً عندك، وبحسبك أن تكون كذا؟ قيل يمنع من هذا أشياء: منها وجودك أسماء مشتقة من الأفعال، نحو قائم من قام، ومنطلق من انطلق، إلا تراه يصح لصحته، ويعتل لاعتلاله؛ نحو ضرب فهو ضارب وقام فهو قائم، وناوم فهو مناوم.

فإذا رأيت بعض الأسماء مشتقاً من الفعل فكيف يجوز أن يعتقد سبق الاسم في الزمان، وقد رأيت الاسم مشتقاً منه ورتبة المشتق منه أن يكون اسبق من المشتق نفسه، وأيضا فان المصدر مشتق من الجوهر، كالنبات من النبت والاستحجار من الحجر وكلاهما اسم. وأيضا فان المضارع يعتل لاعتلال الماضي وان كان أكثر الناس على أن المضارع اسبق من الماضي. وأيضا فانّ كثيرا من الأفعال مشتق من الحروف، نحو قولهم: سألتك حاجة فلو ليت لي، أي قلت لي: لولا , وسألتك حاجة فلا ليت لي، أي قلت لي: لا. واشتقوا أيضا المصدر –وهو اسم– من الحرف، فقالوا: اللألاة والولاة وإن كان الحرف متأخراً في الرتبة عن الأصليين قبله: الاسم والفعل"[37] وهكذا يترك العقل يطرح الأسئلة ويفترض الجواب المفعم ويستمر في ذلك حتى يفرض القول الأقوى في المحاورة.

ويقول ايضا:"فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا قولها وجعلوه دليلاً على قوة المعنى المحدث به وهو تكرير الفعل كما جعلوا تقطيعه في نحو صرصر وحقق دليلاً على تقطيعه" [38].

ويكرر في الموضع نفسه:"فكلما ازدادت العبارة شبها بالمعنى كانت أدل عليه وأشهد بالغرض فيه فلما كانت إذا فاجأت الأفعال فاجأت أصول المثل الدالة عليها أو ما جرى مجرى أصولها نحو وهب ومنح وأكرم وأحسن كذلك إذا أخبرت بأنك سعيت فيها وتسببت لها وجب أن تقدم امام حروفها الأصول في مثلها الدالة عليها أحرفا زائدة على تلك الأصول تكون كالمقدمة لها المؤدية إليها" [39].

المحور الثاني :اللغة العربية وعلم المنطق اليوناني: تعد البصرة المدينة الإسلامية الأولى التي عنيت بعلم النحو، ففيها نشطت حلقات العلم ونشأت المدارس النحوية فعرفت كتب اللغة والنحو الأولى (الجامع والإكمال) و(العين) و(كتاب سيبويه) وما تلاها من مؤلفات ضاع منها كثير، ومما يتوجب أن نقف عنده أن البصرة كانت المدينة الإسلامية الأولى التي ترجم فيها علم المنطق لأرسطو طاليسي.

إذ يروى أن ابن المقفع قد ترجم كتب أرسطو في المنطق عن

الفارسية، وقبل ذلك بقليل كان مذهب المعتزلة قد نشأ في البصرة على يد واصل بن عطاء (131ه)ونشأ معه علم الكلام فأضحت البصرة منبراً لعلوم المنطق والكلام والفلسفة والجدل والبحث في أصول الدين. وفي خضم هذا الصراع الفكري نشأ النحو العربي على أيدي نحويي البصرة متأثراً بعلم المنطق وعلم الكلام وعلم الفلسفة نجد ذلك واضحاً "في استعمال النحويين للتعريفات أو الحدود والعوامل والأقيسة والعلل وبعض المصطلحات المنطقية كالجنس والفصل والخاصة والماهية والماصدق والعهد والاستغراق والعموم والخصوص" [40].

في المقابل نجد مدرسة أخرى كانت تسير بعكس هذا الاتجاه، هي مدرسة الكوفة، فهذه المدرسة وإمامها الكسائي (189ه) وصفت فيما بعد بمدرسة السماع. وبلا منازع هي مدرسة القراءات القرآنية، فأخذ رجالها يعترضون على طريقة أهل البصرة في إخضاع النحو للقياس والعلل العقلية، فالسماع هو الأساس الذي يؤخذ منه؛ لأنه كلام العرب، وهكذا أخذوا من كلام كل القبائل من غير استثناء واعتمدوا على الشاذ والنادر من كلام العرب من غير تفريق، في حين تمسك نحويو البصرة بالأخذ من (سافلة العالية ومن عالية السافلة) كما يقول أبو عمرو بن العلاء(157ه)[41] وهو ما سمي فيما بعد (بالاستقراء الناقص) وهو ما ظهر جلياً في مؤلف النحو الأول (كتاب سيبويه)، فهل نسلم بعد عرض هذا الواقع اللغوي أن النحو العربي تأثر بعلم المنطق اليوناني إلى حد نقل المصطلحات والقوانين منه؟ في ذلك يقول كمال إبراهيم: "لم يثبت تأريخياً أن أبا الأسود أو غيره ممن عمل في وضع قواعد لغة العرب من بعده كان يعرف اليونانية أو انه اختلط بالسريان" [42].

ويقول بروكلمان: "أن علماء العرب يرددون دائماً الرأي القائل بأن النحو العربي صدر عن روح عربية خالصة "[43] والحق إنه كذلك، فالمصطلحات والقوانين عربية خالصة في الكتاب الأول (كتاب سيبويه)، بل إننا لا نبتعد كثيراً عن الصواب لو قلنا إن المصطلح في الكتاب ما كان ناضجاً إلى درجة الاعتماد عليه مثال ذلك : "الأحداث، المبني، والمبني عليه، كائن ولم ينقطع، الشريك، الفعل الحادث، الإحالة، الإعراض، مجاري أواخر الكلم، العلاج ,ولاهوهو"[44] وإنما هي إلى الوصف أقرب منها إلى المصطلح ولو كانت لديه مصطلحات جاهزة لأخذها من اليونانية أو نقلها على الأقل من شيخه الخليل الذي عرف بمعرفته باللغات وشغفه بعلم الرياضيات فضلا عن العلوم الأخر.

يمكننا الان أن نستشهد بقول بروكلمان: "فالعرب تأثروا بهما،

أي الفسلفة والمنطق اليونانيين في تنظيم النحو وتهذيبه وفي بعض مصطلحاته وأساليبه وفي طريق الحجاج والمناقشة فيه، وهناك فرق بين نقل النحو عنهم، أو تقليدهم والتأسي بهم في إبداعه ونشأته وبين الإفادة من هذا المنطق في طريقة البحث فيه والاستدلال عليه وفي استعارة بعض مصطلحاته أو السير على نهجه وأسلوبه" [45] .

أن علم المنطق هو علم ترتيب الأفكار واستخراج الخطأ منها ولاشك انه من علوم الآلة التي لا يستغني عنها طالب العلم، وهو ليس من علوم العرب وليس مرد ذلك إلى أن العرب امة لا تهتم بالفكر مثلما يريد أعداؤها أن يروجوا، انما الأمر في ثراء المفردات وغنى التعابير ما مكنها الاستغناء عن ذلك، فما من لغة تملك ما تملكه العربية من اتساع في المعاني ووفرة في المترادفات وقوة في الألفاظ ودقة في الوصف والتعبير، ثم حدث أن تهافتت علوم المنطق والفلسفة وعلم الكلام على الثقافة العربية بسبب الانفتاح الفكري الذي قدمته الحضارة العباسية للفكر الإسلامي وذلك على وفق خطة محمومة منظمة هدفها فصل الفكر الإسلامي الناصع عن لغته الأصلية لغة القران الكريم، وقد تنبه علماء الأمة الاعلام أمثال الجاحظ (255ه) وابن سنان الخفاجي (466ه)، وأبو هلال العسكري (366ه) وأبو سعيد السيرافي (386ه) إلى خطورة هذا الأمر. وقد يكون الامام الغزالي (505ه) أول من استطاع تحويل المنطق إلى آلة بيد الفكر الإسلامي ليرد به كل من أراد النيل من عقيدة الإسلام الصحيحة الصافية[46] .

وبعد هذا العرض، فإن سؤالا يفرض نفسه: هل يستغني الدرس النحوي عن علم المنطق؟ والجواب: أن علم النحو لابد له من منهج قويم يقف عليه من خلال تبويبات وتقسيمات صحيحة مرتبة لا تخلُ بأهمية باب من أبوابه ولابد له أيضا – في مواضع كثيرة– من التقديرات والتأويلات بما يتوافق مع القواعد والأصول، لكن الذي حصل فيما بعد –في عصور المتأخرين– أن الأمر استفحل إلى أن وصل إلى الابتعاد عن الأساليب والتعابير الجميلة التي كانت تحفل بها مؤلفات النحو الأولى مثل (الكتاب) لسيبويه وما تلاها، وقد هيمن علم المنطق على النحو وأثقله بالتقسيمات والتأويلات البعيدة التي لا طائل لها، الأمر الذي جعل فريقاً من النحويين يثور على هذا الاتجاه في التأليف، ويمكننا القول إن الكلام العربي قيد بسلاسل لا فكاك له منها، وهو ما وقف عليه أن مضاء النحوي (592ه) في كتابه (الرد على النحاة), وهذه المناظرة تدور على وفق حوار فكري يعتمد على المنطق في تسلسل الأفكار وبناء بعضها على بعض. واضح أن الاثنين على دراية بآداب البحث والمناظرة، ناظر أبو سعيد خصمه بالمنطق

نفسه لكنه اثبت حاجة المنطقي إلى اللغة وفقره إليها . . وفيما يأتي عرض للجانب المهم من هذه المناظرة:

-المحور الثالث :المناظرة بين أبي سعيد ومتى المنطقي .

- قال متى: يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف فإني أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتها لي يونان.

- قال أبو سعيد: أخطأت لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف، فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها، وكذلك أنت تحتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف فان الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد في المتحركات[47]. والمتحركات هي المحسوسات، أي أن أخطأت في حركات الألفاظ العربية سوف تخطئ في تسمية المسميات بأسمائها. ومن أين اخذ المناطقة مصطلحاتهم كالسبب والآلة والسلب والإيجاب والموضوع والمحمول والمحصور والجزئي والكلي وغيرها من الأمثلة؟ أليس من ألفاظ العربية!.

بل إن المناطقة إلى تعلم العربية أحوج، فالمعاني (اليونانية) لا لغة لها، يونانية أم هندية أم فارسية وهكذا هو معنى أربعة وأربعة في كل لغات العالم. فالمعاني عالمية اما اللغات فليست كذلك، فهي لابد أن تكون عربية أو فارسية أو تركية. . .الخ.

1. سأل أبو سعيد خصمه عن سبب ترجمته كتب أرسطو طاليس بالعربية وشرحه لها بالعربية، مع جهله بحقيقة وأهمية هذه اللغة! ثم بين له أن العجب دخل المنطقيين لظنهم أن المعاني لا تعرف ولا تستوضح إلا بطريقتهم ونظرهم وتكلفهم فترجموا لغة هم فيها ضعفاء ناقصون، وجعلوا تلك الترجمة صناعة ادعوا أن النحويين مع اللفظ لا مع المعنى. . ثم ذهب أبو سعيد يطرح المسائل النحوية عليه تترى دون أن يجدوا جواباً حتى سأله عن الفرق بين جمل ثلاث:

1. بكم الثوبان مصبوغان ← معرفة
2. بكم ثوبان مصبوغان ← نكرة
3. بكم ثوبان مصبوغين ← حال

أجاب متى: لو نثرت أنا عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالي! [48]

2. أكد أبو سعيد السيرافي أن معيار الخطأ والصواب انما يعرف باللغة، فالألفاظ هي التي تدل على المعاني, وإذا كانت العربية هي التي تتحدث بها فلابد من إتقانها لتكون هي المعيار فإذا كان علم المنطق قد وضعه رجل من أهل اليونان بلغة أهلها واصطلاحهم وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها فمن أين يلزم العرب أو غيرهم من الأمم

أن ينظروا فيه ويتخذوه معياراً للخطأ والصواب؟

3. أجاب متى المنطقي أن المعاني (عالمية) والناس في المعقولات سواء بدليل أن (أربعة وأربعة: ثمانية) عند جميع الأمم[49]

أجاب السيرافي أن الأمر لو كان بهذه البساطة لزال الاختلاف بين المذاهب والمدارس الفكرية ولكن الاغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة، ولغتنا العربية هي غير السريانية واليونانية وغيرها من اللغات القديمة التي انقرضت وما عاد احد يتحدث بها. وإذا كان المنطق قد كتب بلغة اليونان، فالأجدر بمتى المنطقي أن يدعونا إلى تعلم لغة اليونان، وهو لا يعرفها ,فضلا عن أن المعاني تتحول بالنقل من لغة إلى أخرى حتى إذا وصلت إلى العربية فقدت الكثير مما وضعت له.

قال متى :أن اليونانية حفظت الاغراض وأدت المعاني على الرغم من زوالها.

أجاب السيرافي :إننا إذا سلمنا أن الترجمة صدقت وما حرفت، فهل عقول اليونان هي الوحيدة في الأرض!

قال متى أن اليونان اصحاب عناية بالحكمة وهم أول من وضع أصول علم المنطق.

أجاب السيرافي: إن العلم مبثوث في العالم بين جميع من في العالم، واليونان كغيرهم من الأمم يخطئون ويصيبون ويحسنون أشياء ويجهلون أشياء. ولم يتغير العالم بعد وضعهم علم المنطق بل بقي على ما كان عليه.

ثم بادر السيرافي بالسؤال: عن حرف (الواو) في العربية وهو دائر في كلام العرب ومعانيه متميزة عند أهل العقل، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق ارسطو طاليس ما هي مواقعه وما احكامه؟

أجاب متى: هذا نحو, والنحو لم انظر فيه؛ لأن المنطق يبحث في المعنى, والنحو يبحث في اللفظ , والمعنى أشرف من اللفظ ,واللفظ أوضع من المعنى.

قال السيرافي: النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية منفصل عنها، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى: أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان والمعنى ثابت على الزمان.

ولنعد إلى (الواو) هلا أخبرتي عن أحكامها ؟ فان كنت تجهل حرفاً واحداً في اللغة التي تدعو بها إلى حكمة يونان فان من جهل حرفاً امكن أن يجهل حروفاً ومن جهل حروفاً أمكن أن يجهل اللغة. ثم أخذ السيرافي يعطي وجوهاً للواو:

4. العطف في (اكرمت زيداً وعمراً)

5. القسم في (والله لقد كان كذا وكذا)

6. الاستئناف في (خرجت وزيد قائم)

7. الاقحام في (فلما أسلما وتله للجبين وناديناه) الصافات (103), أي: ناديناه.

8. الحال في (ويكلم الناس في المهد وكهلا) آل عمران (46), أي يكلم الناس في حال كهولته.

وهكذا فالمعاني إنما تعرف بدقة اللفظ , ومعاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك[50] .

9. وقال أبو سعيد: "بل أنت الى تعرف اللغة العربية أحوج منك إلى تعرف المعاني اليونانية على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية، كما أن اللغات تكون فارسية وعربية وتركية ومع هذا فانك تزعم أن المعاني حاصلة بالعقل والفحص والفكر فلم يبق إلا احكام اللغة فلم تزري على العربية وأنت تشرح كتب أرسطو طاليس بها، مع جهلك بحقيقتها ؟"[51] .

10. وقال ايضا: "فلم تدعي أن النحوي إنما ينظر في اللفظ دون المعنى والمنطقي ينظر في المعنى لا في اللفظ؟ هذا كان يصح لو أن المنطقي كان يسكت ويجيل فكره في المعاني ويرتب ما يريد بالوهم السانح والخاطر العارض والحدس الطارئ؛ فأما وهو يزيغ أن يبرر ما صح له بالاعتبار والتصفح إلى المتعلم والمناظر فلابد له من اللفظ الذي كان يشمل على مراده ويكون طباقاً لغرضه وموافقاً لقصده" [52] .

بعد هذا يقدم السيرافي اقتراحات ثلاثة تظهر براعته في الجدل وقوة الحجة إذ يقول:

1- "لو سألتني عن شيء، أنظر فيه: فان كان له علاقة بالمعنى وصح لفظه على العادة الجارية أجبت، ثم لا أبالي أن يكون مخالفاً أو موافقاً .

2- وان كان غير متعلق بالمعنى رددته عليك.

3- وإن كان متصلاً باللفظ على وضع لكم في الفساد على ما حشوتم به كتبكم رددته أيضا لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة في لغة مقررة بين أهلها" [53] .

وخلاصة الاحتمالات الثلاثة إنه سوف ينظر في السؤال (المنطقي) ويجيب عنه بما تعطيه المعاني المعروفة، والمتوافقة مع اللفظ الذي تفهمه الناس، وليس على وفق المعاني المتكلفة والتي لا يعبر عنها اللفظ العربي، ذلك؛ لأن الكلام العربي هو نتاج المعاني المتصورة في الذهن. ويمتاز الفكر العربي بالصفاء والاصالة, ثم صقلته عقيدة التوحيد التي نزل بها القرآن الكريم فشع بها نوراً إلى اصقاع المعمورة؛ لذا فانه عقب بعد ذلك

بقوله "وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه"[54] .

وبعد فإن خطورة هذا الأمر تعدت علم النحو لتسري إلى علم البلاغة والذي يعني بفصاحة الكلام العربي وقد أدى هذا إلى أن تتجه البلاغة اتجاهين عرفاً عرفا بالمدرسة الكلامية والمدرسة البلاغية , والمدرسة البلاغية هي التي اعتمدت على الذوق في تقييم الكلام وتمييز غثه من رديئه وانما يتحصل هذا بالدربة التي تؤدي إلى تكامل الملكة اللغوية ويظهر هذا واضحاً عند عبدالقاهر الجرجاني (471ه) في كتابيه (اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز) ومن نحا نحوه. أما المدرسة الكلامية فقد نشأت في بيئات أعجمية جاعلة المنطق والفلسفة تتغلغلان إلى أعماق البلاغة العربية، فاهتموا بالتحديد الدقيق والتقسيم العقلي وجعلوا الحدود جامعة مانعة واستعملوا اساليب المتكلمين غير عابئين بالشواهد الشعرية والنثرية من كلام العرب[55] . قال الامام السيوطي (911ه): "رزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء على طريقة العجم وأهل الفلسفة" [56] ولكي لا نجار في الحق، فان المدرسة الكلامية ما قال احد من اصحابها بإهمال اللغة والاعتماد على المعاني، كما رأينا عند متى المنطقي وأصحابه الذين يذكرون (الخطابة) ولا يستشهدون بخطب العرب قبل الإسلام وبعده ويذكرون (الشعر) ولا يستشهدون بأشعار العرب قبل الإسلام وبعده.

وقال أبو سعيد: إذا قلت: (زيد أفضل إخوته) لم يجز، وإذا قلت: (زيد أفضل الإخوة) جاز، والفصل بينهما أن اخوة زيد هم غير زيد خارج عن جملتهم والدليل على ذلك :أنه لو سأل سائل فقال: (من اخوة زيد)؟ لم يجز أن تقول: زيد وعمر وبكر وخالد, وإنما تقول :(بكر وعمر وخالد) ولا يدخل زيد في جملتهم. فإذا كان زيد خارجاً عن إخوته صار غيرهم فلم يجز أن تقول: أفضل إخوته)) [57] .

إن من أظهر المصائد التي اوقع فيها السيرافي خصمه, مسألة الموازنة بين جملتين، الأولى صحيحة بالاتفاق، والثانية ملبسة ولأهل النحو فيها كلام , والجملتان: (زيد أفضل الإخوة)، (زيد أفضل إخوته) . وقد قبل متى الجملتين ولم يفرق بينهما .

والاولى لا إشكال فيها، وإنما الاشكال في الثانية: (زيد أفضل إخوته) . قال أبو سعيد: "إذا قلت: (زيد أفضل إخوته لم يجز)، وإذا قلت: (زيد أفضل الإخوة) جاز، والفصل بينهما أن اخوة زيدهم غير زيد، وزيد خارج عن جملتهم. والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال: (من اخوة زيد)؟ لم يجز أن تقول: زيد وعمر وبكر وخالد وإنما تقول: بكر وعمر وخالد،

ولا يدخل زيد في جملتهم، فإذا كان زيد خارجاً عن إخوته صار غيرهم)) [58] ولحسم اللبس هذا يبدأ السيرافي بالموازنة والتمثيل مع جمل أخر لاظهار الفرق جلياً بين القولين فيقدم جملة: (حمارك أفره البغال) ؛ "لان الحمير غير البغال، كما أن زيداً غير إخوته، فإذا قلت: (زيد أفضل الإخوة) جاز، لأنه احد الإخوة، والاسم يقع عليه وعلى غيره فهو بعض الإخوة"[59] .

ومن المفيد في هذا الموضع، التعرض إلى تمثيل ابن جني في المسألة نفسها إذ يقول: "ومن المحال قولك: (زيد أفضل إخوته) ونحو ذلك. وذلك أن أفضل: أفعل، وافعل هذه التي معناها المبالغة والمفاضلة، متى اضيفت إلى شيء فهي بعضه، كقولك: زيد أفضل الناس، فهذا جائز؛ لأنه منهم, والياقوت أنفس الاحجار؛ لأنه بعضها، ولا تقول: زيد أفضل الحمير، ولا الياقوت أنفس الطعام؛ لانهما ليسا منهما، . . . . ، إلا ترى انه لو كان له اخوة بالبصرة وهو ببغداد وكان بعضهم وهم بالبصرة لوجب من هذا أن يكون من ببغداد البتة في حال كونها بها، مقيماً بالبصرة البتة في تلك الحال" [60] بقي أن نذكر أن الجملة غير مقبولة نحوياً –بناء على ما تقدم؛ "لان الإخوة مضافون إلى ضمير زيد وهي الهاء في إخوته، فلو كان واحداً منهم وهم مضافون إلى ضميره كما ترى، لوجب أيضا أن يكون داخلاً معهم في اضافته إلى ضميره وضمير الشيء هو الشيء البتة والشيء لا يضاف إلى نفسه" [61] .

وفي ما تقدم قدر وافٍ يدل على هيمنة علم المنطق على التوجيه النحوي لأنواع من أساليب من الكلام ما كانت لتظهر بينة جلية ,من غير استعمال الحجج المنطقية والعقلية، وعوداً إلى المناظرة, فإننا نجد سؤالاً يطرح نفسه بقوة: لو كان متى وهو المنطقي، عالماً بالنحو وبطرف من لغة العرب، أما كان الأقدر على استيعاب وجوه هذه القضية واحتمالاتها ؟ الجواب قدمه خصمه الذي تمكن بما يملك من بضاعة عتيدة في اللغة والنحو، ومن بضاعة متواضعة من علم المنطق من احتواء القضية ودعمها بالحجج والبراهين الدامغة.

المحور الرابع :أثر علم المنطق في العقائد:

لقد كان المنطق وعلم الكلام والفلسفة، سلاحاً فعالاً بيد الملاحدة والزنادقة والمشككين. ولأن هذه العلوم لها القدح المعلى عند الأمم الأعجمية التي دخلها الإسلام، فكان من الطبيعي أن ينشأ الصراع الفكري ويحتدم بين العقيدة الإسلامية الصحيحة وبين هذه الدعاوى التي ابتعدت بالفكر الاسلامي عن منهجه الأصيل، فمذهب أهل السنة والجماعة لا يهمل العقل، بل يأخذ بالعقل ما وافق النقل. إلا إن تلك الفرق اعتمدت على العقل اعتماداً كلياً في تفسير آيات القران الكريم

فجنحت عن جادة الصواب ومالت عن طريق الحق. ولا نريد تفصيل عقائد المعتزلة أو المرجئة أو البراهمة أو الاثني عشرية أو غيرهم فليست هذه غاية البحث. وإنما نريد اثبات عقيدة التوحيد التي هي عقيدة كل الانبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وذلك بنفس أدلة علم المنطق الذي يدعو إليه متى المنطقي ومن تبعه قال الله تعالى "ولا تقولوا ثلاثة انتهوا" النساء(171).

ابتداء فإن متى هو رجل نصراني لا يؤمن بوحدانية الله تعالى ولا يؤمن بمحمد (ﷺ) خاتماً للرسل والانبياء ؛لذا فان إهماله للغة وتأكيده على المعاني المدركة للعقل وحده انما يصدر من عزوفه عن لغة القران الكريم. وقد طلب منه السيرافي أن يثبت بالمنطق أن الله ثالث ثلاثة وان الواحد أكثر من واحد، بقوله: "أتراك بقوة المنطق وبرهانه اعتقدت أن الله ثالث ثلاثة وأن الواحد أكثر من واحد وأن الذي اكثر من واحد هو واحد "[62].

أن الله عز وجل واحد لا من طريق العدد، ولكن من طريق أنه لا شريك له فهو (الاحد) و(الصمد) و(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير). وعقيدة عيسى عليه السلام هي التوحيد وانما حرفها الذين يحرفون الكلم عن مواضعه . والدليل على وحدانية الله عز وجل "هو وحدة الذات والصفات بمعنى عدم النظير فيهما، فلو تعدد الاله كأن يكون هناك إلهان لما وجد شيء من العالم، لكن عدم وجود شيء من العالم باطل لأنه موجود بالمشاهدة فإذا ابطل التعدد ثبتت الوحدانية. قال الله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) الأنبياء: 22 ؛ لانهما اما أن يتفقا او يختلفا، فان اتفقا: فلا يجوز أن يوجد العالم معاً لئلا يلزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد . ولا يجوز أن يوجداه مرتبا، بأن يوجده أحدهما ثم يوجده الآخر لئلا يلزم تحصيل الحاصل، ولا يجوز أيضا أن يوجدا العالم بالتبعيض، أن يوجد كل منهما بعضامنه ؛ لان بعض العالم متعلق بقدرة احدهما, ومعنى هذا أن البعض الاخر غير متعلق بقدرة الاله الاول فلا يقدر على مخالفته وهذا عجز، وهذا البرهان يسمى (برهان التوارد) لما فيه من تواردهما على شيء. وان اختلفا: بان أراد احدهما إيجاد العالم والاخر إعدامه فلا يجوز أن ينفذ امرهما لئلا يلزم اجتماع عليه اجتماع الضدين، ولا يجوز أن ينفذ مراد احدهما دون الاخر لان ذلك يعني عجز الاخر عن أن ينفذ مراده؛ لانعقاد المماثلة بينهما . ويحكى عن ابن رشد قوله: اذا نفذ مراد احدهما دون الآخر, كان الذي نفذ مراده هو الاله دون الآخر وتم دليل الوحدانية، وهذا البرهان يسمى (برهان التمانع) [63] ومعلوم أن مصطلحي

التوارد والتمانع من مصطلحات علم المنطق فهلا اهتدى ذاك المنطقي إلى التوحيد بهذه الأدلة التي هي من صميم علمه وأصول صنعته!

وجليّ هنا كيف استطاع علماء الإسلام اصحاب المنهج السديد أن يجردوا المناطقة واصحاب الجدل من اسلحتهم ويوجهونها اليهم بكل ما مكنتهم اللغة العربية من قوة إلى الحجاج وفصاحة في التعبير وبلاغة في الألفاظ[64] .

قال الغزالي رحمه الله: "انه لا يجوز أن يكون شيئان كل واحد منهما واجب الوجود كما لا يكون للبدن الواحدة الا نفس واحدة فلا يكون للعالم إلا رب واحد هو مبدع الكل ويتعلق به الكل تعلق الوجود والبقاء وأيضا لو كان واجب الوجود اثنين فبم يتميز أحدهما عن الآخر، فإذا كان بعارض فيكون كل منهما معلولاً وان كان بذاتي فيكون مركباً ولا يكون واجب الوجود"[65] .

الخاتمـــــة

1. يقدم البحث صورة لما عليه أدب المحاورات في العصر العباسي ومدى تأثر العلوم العربية بالفكر الوافد اليه , إثر انفتاح الحضارة الاسلامية في ذلك العصر على مختلف الثقافات ومن أهمها الفكر اليوناني

2. أبوسعيد السيرافي صاحب أهم شرح لاقدم وأهم كتاب في النحو العربي :كتاب سيبويه , له مؤلفات جمة في مختلف العلوم , لم يكن في هذه المناظرة منحازا الى علم النحو بقدر ما كان رافضا لانزاله مرتبة أدون من علم المنطق ,إذ انتشر علم المنطق في مجالس العلم والادب والمؤلفات في تلك الفترة ؛ لذا كان أهل اللغة وأرباب النحو يرفضون أن تعلو منزلة المنطق على حساب اللغة , وأن اللغة (لغة القرآن الكريم) هي الاساس قبل كل العلوم.

3. طغيان المنطق على المؤلفات والتصانيف , أفقد اللغة كثيرا من جماليتها , بسبب كثرة المصطلحات والتقسيمات المنطقية, ما ابتعد بالنحويين عن دراسة الجملة العربية دراسة اسلوبية .

4. إن إغـــراق المختصـــرات والشـــروحات النحويـــة بالمصطلحات المنطقية , كان أمرا محتما على المؤلفين للمناهج العلمية , إذ لا يمكن تقديم منهج متكامل لابواب النحو النحو العربي من غير أن يقسم على وفق أسس علمية ومنطقية عقلية تحتويه , وكفى بهذا من عذر لهم.

5. ما يحسب على المناظرة , ان المطلع عليها يشعر أنها غطت الحوار من جهة ابي سعيد السيرافي , أكثر من خصمه إذ لا تعدو ردود متى المنطقي على مواضع مقتضبة وقصيرة ,

وربما نعزو هذا الى مقدرة صاحب اللغة على تطويع صنعته وقدرته على ايراد الشواهد اللغوية والنحوية وحفظه لنصوص اللغة .

6. المنطق اليوناني ساد وفشا عند كل الحضارات , بيد ان الحضارة العربية الاسلامية هي التي يحسب لها , أنها هي التي أظهرته من جديد وثورت مفاهيمه وجعلته مؤطرا لكل المناهج العلمية ,بعد أن تضاءل ردحا من الزمن بسبب اندثار الحضارة اليونانية .

المصادر:

1. احياء علوم الدين: الامام أبو حامد الغزالي (505ه), دار ابن حزم للنشر والتوزيع- بيروت ,ط1, 1426ه/2005م.
2. أخبار الحكماء :علي بن يوسف القفطي (ه), تحقيق : ابراهيم شمس الدين , دار الكتب العلمية – بيروت , ط1 , 1426ه/2005م.
3. أدب الكاتب : ابن قتيبة الدينوري :تحقيق:احمد شاكر, الرحمانية, ط1, 1976م/1355ه.
4. اسرار البلاغة: ابو بكر عبدالقاهر الجرجاني (474ه),علق عيه محمود محمد شاكر
5. أصول النحو: اثر علوم المنطق والكلام والشريعة في العلة النحوية: منتديات ستار تايمز.
6. الامتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي(400ه) .:مراجعة :هيثم خليفة الطعيمي, المكتبة العصرية –بيروت, د .ط ,– د .ت.
7. البيان والتبيين: أبو عمر عثمان بن بحر الجاحظ (255ه): تح: حسن السندوبي، مطبعة الاستقامة، مصر، 1366ه/ 1947م.
8. التنبيه على سبيل السعادة: ابو نصر الفارابي : تحقيق : محمد جعفر آل ياسين , دار المناهل-بيروت, د .ط, 1985م/1405ه.
9. الثقافة المنطقية في الفكر النحوي(نحاة القرن الرابع الهجري نموذجا):د .محي الدين حسيب, مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية –الرياض (نت) .
10. الحيوان: الجاحظ: تح: عبدالسلام محمد هارون، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1388ه/ 1969م.
11. الخصائص: ابن جني (293ه):تحقيق: محمد علي النجار, دار الشؤون الثقافية العامة,د .ط,1411ه/1990م.
12. دلائل الاعجاز: عبدالقاهر الجرجاني (474ه) .علق

عليه محمود محمد شاكر, مطبعة المدني – القاهرة, دار المدني بجدة, ط3, 1413ه/1992,

13. رسائل الجاحظ: تح: محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية، بيروت: د.ط، 1403ه/ 1983م.

14. شرح البيجوري على الجوهرة: إبراهيم البيجوري: دار السلام للطباعة والنشر ,تحقيق :علي جمعة محمد الشافعي ,ط1 ,1422ه/2002م.

15. علم اللسان العربي :عبد الكريم مجاهد: دار اسامة للنشر – عمان , 2004م/1425ه.

16. اللسانيات (النشأة والتطور):أحمد مؤمن , المطبعة الجهوية – قسنطينة , ط3, 2007م/1427ه.

17. اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب: الدكتور الأخضر الجمعي، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، د.ط.، 2002م/1422هـ.

18. مجموعة رسائل الجاحظ: تحقيق: د. محمد طه الحاجري، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، 1993م/ 1413هـ.

19. مدرسة البصرة النحوية: عبد الرحمن السيد :دار المعارف – مصر ,ط1 , 1968م/1388ه.

20. معارج القدس في مدارج معرفة النفس: ابوحامد الغزالي(505ه) , در الافاق الجديدة- بيروت ط 1 , 1351/1975ه .

21. المفكرون الاسلاميون في مواجهة المنطق اليوناني : وضعه بالفارسية :مصطفى طباطبائي –ترجمة :عبد الرحيم ملا زئي البلوشي, دار ابن حزم, ط1, 1410ه/1990م.

22. المقابسات :ابو حيان التوحيدي (400ه), تحقيق: حسن السندوبي , الرحمانية ,مصر,ط1, 1347ه/1929م.

23. من أسرار اللغة : ابراهيم أنيس , مكتبة الانجلو المصرية ,ط7 ,1994م/1414ه.

24. المنهج العقلي في الدراسات العربية: د. محمد عمارة، دار النهضة، مصر للنشر والتوزيع، د.ط، 1997م/ 1417هـ.

25. نحو التيسير: احمد عبد الستار الجواري :المؤسسة العربية للدراسات والنشر, طبعة جديدة,2006م/1426ه.

26. واضع النحو الاول: مقال منشور في مجلة البلاغ: العدد (9)، ص26.

الهوامش :

(1) المقابسات: أبو حيان التوحيدي : 170-171 .

(2) اللسانيات (النشأة والتطور): أحمد مؤمن: 281.

(3) علم اللسان العربي: عبدالكريم مجاهد : 8 .

(4) الفكر النحوي في ضوء المنطق الأرسطي: حسن منديل العكيلي : 23 .

(5) ينظر: أخبار الحكماء: القفطي: 148 .

(6) المفكرون المسلمون في مواجهة المنطق اليوناني: مصطفى طباطبائي: 18 .

(7) الثقافة المنطقية : د. محيي الدين محسب : 184.

(8) المصدر نفسه : 50 .

(9) التنبيه على سبيل السعادة: أبو نصر الفارابي : 80 .

(10) أدب الكاتب : ابن قتيبة : 50 .

(11) المفكرون الإسلاميون : 53.

(12) الامتاع والمؤانسة:97.

(13) الحيوان: الجاحظ: 3/131-132.

(14) البيان والتبيين: الجاحظ: 1/91.

(15) المصدر نفسه: 1/92.

(16) الحيوان: 1/74-75.

(17) المصدر نفسه: 1/127.

(18) المصدر نفسه: 1/151.

(19) البيان والتبيين: 1/153.

(20) رسائل الجاحظ: تحقيق الحاجري: 100.

(21) البيان والتبيين: 1/361. وينظر: اللفظ والمعنى في التفكير البلاغي عند العرب: د.الاخضر الجمعي: 48.

(22) ينظر: اللفظ والمعنى في التفكير البلاغي عند العرب :الاخضر الجمعي:44.

(23) دلائل الاعجاز: للجرجاني: 44.

(24) دلائل الاعجاز: 41-42.

(25) المصدر نفسه: 38.

(26) المصدر نفسه: 285.

(27) اسرار البلاغة: الجرجاني: 5.

(28) دلائل الاعجاز: 196-197.

(29) المصدر نفسه: 373.

(30) المصدر نفسه: 57، وينظر: اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب: الاخضر الجمعي: 188، 198، 200، وممن ساوى بين اللفظ والمعنى: ابن قتيبة (276ه) وابن رشيق القيرواني (ه).

(31) الخصائص: 1/ 2، وينظر: المنهاج العقلي في دراسات العربية: د. محمد عمارة- دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م/ 1478ه، د/ط، وفي العبارة اشارة إلى ما اشتهر بع المعتزلة: (اهل العدل والتوحيد).

(32) المصدر نفسه: 245/3.

(33) المصدر نفسه: 109/1.

(34) المصدر نفسه: 230/1.

(35) المصدر نفسه: 1/ 16.

(36) الخصائص: 161/2 ، ابن جني مع نظرية المواضعة اذ يقول: ان اكثر اهل النظر على ان اصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوفيق، الخصائص: 40/1 , وذهب اصحاب هذا المذهب إلى ان قوله تعالى (وعلم ادم الاسماء كلها) البقرة: (31). أن الله أقدر آدم أن واضع عليها.

(37) المصدر نفسه: 34/2.

(38) المصدر نفسه: 155/2.

(39) الخصائص: 154/2.

(40) اصول النحو- اصول علوم المنطق والكلام والشريعة في العلة النحوي: منتديات ستار تايمز.

(41) ينظر: نحو التيسير: د.احمد عبد الستار الجواري:19.

(42) مجلة البلاغ: العدد (9)، ص26، المقال بعنوان: واضع النحو الاول.

(43) مدرسة النحو البصرية: عبد الرحمن السيد: 104.

(44) ينظر: الكتاب: 12/1، 127/2، 12/1، 421، 241، 26، 24، 23، 363، 118/2.

(45) مدرسة النحو البصرية: عبد الرحمن السيد: 101.

(46) ينظر: الامتاع والمؤانسة: 93/1.

(47) الامتاع والمؤانسة:97/1.

(48) ينظر: الامتاع والمؤانسة:97/1.

(49) ينظر: المصدر نفسه:93/1.

(50) ينظر: الامتاع والمؤانسة : 95/1، أجاب متى المنطقي بـ: نعم على احد الاسئلة، فقال ابو سعيد: أخطأت: بل قل: بلى في هذا الموضع.

(51) المصدر نفسه :94/1.

(52) ينظر: الامتاع والمؤانسة:96/1.

(53) ينظر: المصدر نفسه:99/1.

(54) ينظر: المصدر نفسه:96/1.

(55) ينظر: المصدر نفسه:96/1.

(56) ينظر: اللفظ والمعنى: 169، والخصائص: ابن جني: 225/1.

(57) الامتاع والمؤانسة:96/1.

(58) المصدر نفسه:96/1.

(59) المصدر نفسه:96/1.

(60) الخصائص: 336/3، اب جني (392ه) وابو سعيد السيرافي (386ه)، وتأريخ هذه المناظرة (326ه) ولا يعلم من الاسبق في عرض هذه القضية.

(61) الخصائص: 336/3-337.

(62) الامتاع والمؤانسة:99/1.

(63) ينظر: شرح البيجوري على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد: ابراهيم البيجوري: 54/1 واحياء علوم الدين: الامام الغزالي: 144/1-145.

(64) قال البيجوري في الآية (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا): و(إلا) في الآية: اسم بمعنى غير وليست اداة استثناء لفساد المعنى حينئذ، لأن المعنى عليه

لو كان فيهما آلهة ليس فيهم الله لفسدتا، فيقتضي بمفهومه أنه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسدا وهو باطل، والمراد بالفساد عدم الوجود" شرح البيجوري: 55/1.

(65) معارج القدس في مدارج معرفة النفس: ابو حامد الغزالي: دار الافاق الجديدة– بيروت، ط2، 1975/ 1351ه.